

باب التربية والتعليم

﴿ أميل القرن التاسع عشر ﴾

(٤) من اراسم الى هيلانه في ١٣ أغسطس سنة ١٨٥٠

الطفل يتلقى علومه الاولى من العالم الخارجي ولكنه هيبات ان يرضى بمجرد الانفعال بالمؤثرات الاجنبية كغيره من الحيوانات التي ترضخ لما يقرر لها من أحوال المعيشة ساكتة عليه غير مفرقة بين ضاره ونافعه فانه لا يكاد يخرج من ظلمة الرحم الا ويكون قد أثبت حرته بصراخه الذي يعارض به ملات الالم وفواعل الطبيعة . فترينه يبكي ويتبرم ممن حوله من الناس والاشياء ويوجد عليهم ان لم يجروا على مقتضى رغائبه . وهو على عزله وعجزه يلج في الشكوى من سلطان القدر ويتدمر عليه بحسب حاله .

وبعد بضعة أسابيع أو اشهر من ولادته تفتتح عيناه وأذناه تدريجاً في مشهد الكون فمن ذا الذي كان بحسب ان هذا الجسم الضئيل الصغير لا يرتعد لما يراه يثور حوله من قوة الفواعل الكونية . بل انه لا يحسب لها حساباً فلا يلبث ان يتأمل في هذا الدولاب الارضى العظيم ويرجع فيه بصره الزائق وهو هادىء البال آمن مع ان أقل أداة فيه ربما كانت كافية لسحته ومحته وهو وان ولدأسير الفطرة لكنه لا يلبث ان يكون حاكماً المستبد فيطلب الى أمه باغته المبهمة الحفية الدلالة ان يجمع له بين الحر والقر والمطر والصحو بل انه ربما استسهل أن يسألها انزال القمر والكواكب من السماء تحصيلاً لذنه ولما كانت الام على كل حال ليست في نظره إلا مثالا حياً للنوع الانساني كانت شعوره بانقوة انما يستمد من اتسابه لهذا النوع فتسبق الى ذهنه العاجز عن الفكر غريزة السلطان الذي لتلك الذات المختارة على العالم فلا يبقى تلقاء هذه القوة المعنوية التي لا يدركها الا حسا غير بين أدنى تأثير في نفسه لعظم تسلط المادة .

ليس الطفل كما يقال لوحاً مصقولاً مجرداً من الإدراك بل إن له ذاتاً تشهر بالوجود ولا تلبث أن تثبت وجودها بما لها من الطريقة المخصوصة في المعيشة والاحساس وبما يصدر عنها من الانفعالات اختياراً وبما لها من الفرائز خلقاً . وكان مشاعره قد جعلت بينه وبين ما حوله من الأشياء اتصالاً كذلك أمياله وورغائبه تتدرج في تهريفه من يعيش بينهم من الناس وتقريره منهم نعم إن معظم انفعالاته النفسية تأتيه في مبادئ الأمر من الخارج فيكون حبه لغيره وضحاكته وكلامه ناشئة من حب ذلك الغير إياه ورؤيته يضحك وسامعه يتكلم بسكته عما قليل يبدي ما يستقر في نفسه من ضروب النفور والميل والترجيح وجهة القول إن طبعه يستبين وبما تكلم عن هذا الموضوع في بحث آخر .

إذا لا اعتقد مطلقاً أني قد أجبت في رسالتي هذه عن أسئلتك التي سألتنيها في التربية فإن توفية الإجابة حتها تستلزم زمناً وأنا قد عدت فيها عدواً أسرع مما يكون فوصيتي إليك أن تفرض على نفسك أنت أيضاً مراقبة أميل فإن أبعداً الأشياء عن نظر القائمين بأمر التربية إلى الآن وأكثرها انفعالاً هو اختبار الطفل ومعرفة .

كلما فكرت فيك وفي أميل كان مثلي كمثل الخنفساء الطائرة يمسكها التلحيد ويربط أحد أطرافها بخيط ويرسلها فتطير في الشمس ناسية رباطها وتسبح في الهواء وتطن فلم يكن إلا أن يجذب التلحيد الخيط حتى تسقط على الأرض . فها هو السجان يدعوني لأن هذا الوقت هو وقت التنزه على أسوار السجن فأودعك وأرجو أن يبقى الحب بيننا وثيق العرى . اهـ

(٥) من هيلانه إلى أرامم في ٢ أكتوبر سنة ١٨٥ -

إن أميل لا جهل غلام في الدنيا . أقول هذا القول وأنا عالمة حق العالم أن جميع الأمهات يدعين ذلك مثلي لأول مولود يرزقنه وهذا يدلك على أننا نرى أيضاً بقلوبنا أكثر مما نرى بأبصارنا .

المرأة تتعلم الحب وتعلم كيف تكون أما فني كل يوم تبدر لي شواهد على ذلك بما يبعثه في نفسي هذا الغلام المحبوب من الرحمة والحنو المتزايدين لكن لا يدعونك

هذا الامر الى ان تخاف على الاستعداد لوجد اني والمعجز عن القيام بما فرضته على نفسي من تربيته فاني اتبعا لنصائحك ونصائح صديقتك أقدم من حاله الحقيقية على ما تقتضيه أميالي وأذواقي وقد أقام لي الدكتور على وجوب ذلك دليلا مستوفى الشرائط فقال بما تعهد به فيه من أدب المنطق وحن الالهجة.

« خلق الله لسائر الحيوانات أعضاء تقوم لها مقام الاسلحة في الدود عن نفسها أما الطفل فلا سلاح له الا ضعفه وصراخه ولكن ما أشد متاوتته لثامها وما أكثر ما يستفيد منها فهو وان كانت انواع الاحساس فيه لا تزال مبهمة لكنه قد طبعت فيه غريزة العدل من نشأته فهو لا يلبث ان يميز بها ما يصدر عنا من الافعال في حقه صوابه من خطائه فاعلمي وثقي بما أقوله لك ان الواجب في سياسة الاطفال خاصة هو ان نكون نحن المحتمين لاهم لانه اذا انعكس الامر فجعل الحق والسلطة لهوهم واستبدادهم فقد أضعنا كل شيء، ذلك ان الطفل يبكي أحيانا للحصول على ما عوده أهله اشتهاه ابتداء، موافقة لهوهم فاذا لم يبادروا الى ارضاء شهوته اما اغفالا منهم لها او غضبا عليه فانه يستمر في بكائه ساعات كاملة بل انه يبكي حتى يشارف الموت فاذا انتهى الامر بالاذعان الى رغبته كان ذلك أيضا سزا من مخالفتها لانه يبين منه ان والديه خلوا مما يدرعانه لمقاومة شديد اهوائه فلا ينبغي ان يعارض الطفل في شيء مما يشتهيه الا متى كان في المعارضة خير له واذا ذلك يجب ان تكون عزيمتنا كالقانون ثباتا وصرامة . »

هذا ما قاله لي واني لاخاله عمودا من الدرر يلفظها من فيه فقد اتفق لي ولا اخفى عليك اني كنت أنسى احيانا الاخذ بنصائحه في سياستي لاميل وفي هذه الحالة كنت أنا وهو نتألم من عاقبة هذا النسيان .

قرأت الفصل الاول من كتابك وهو على ما أرى كتاب تؤلفه في التربية وأنا في انتظار قراءة باقيه لا كاشفك برأيي فيه فاعتقد تمام الاعتقاد ان تربية أميل ستكون على وفق آرائك ورغائبك ولكن لا يغرب عن فكرك ان خط المعاني على الورق أسهل من نقشها في صحف الحياة ومجاري الواقع

انشأ ورق الشجر هنا تحت ويستقط لـ لكن فصل الخريف في هذا البلد جميل وان كان غزير الامطار فهو كوداع العزيز ابتسام في بكاء وتأتي فيه أيام قد يتوهم الانسان فيها انه لا يزال فصل الصيف وما يميز هذا الوهم قوة ان زنجينا البار قد غرس في حديقتنا المربعة المقابلة لشباك حجرة تسمى أشجار العود والصبار والمانوليا (١) وأراد بهذه العناية اللطيفة ان يهديني شيئاً من جنى أرض بلاده التي يحفظ لها في فؤاده أشد ذكر ويؤكد الناس ان بعض نباتات المنطقة الحارة يمكن اذا حيطت ببعض ضروب من العناية أن تفرس هنا وتنمو ولا ينالها من فصل الشتاء أدنى فقد قال لي بستاني السيدة وارنجتون ما نصه « ان السبب في هلاك هذه النباتات في غير أقليمها ليس هو فقدانها ما كانت فيه من الحرارة بل هو ما تلاقيه من الجليد في الاقاليم الاخرى وحينئذ فهي تنجح في كورنواي لان أقليمها معتدل اذ ليس فيه افراط في الحرارة ولا في البرودة »

فكم من امرأة تعيش معيشة هذه النباتات مطوحاً بها عن مطلع شمس محبتها فلا تموت لتستريح من عناء هذه المعيشة . اهـ .

(٦) من هيلانه الى اراسم في اول يناير سنة ١٨٥

قد حيرني سكوتك وانقطاع رسائلك عنى فقد مضى زمن طويل جداً لم أحظ فيه بشيء من اخبارك فلعل السر في ذلك ان دخول المكاتب في السجن ايسر من خروجا منه واني على يقين بانك لا ذنب لك في هذا ولكني لبعدي عنك تزاني اوجس خيفة من كل شيء

فشا في كورنواي منذ بضعة اسابيع مرض مهد اودى بكثير من الانفس ويقال انه وفد علينا من جنوب انكاترا . ترى هل كان يدور في خلدك ان مسقط رأس الطبيب جنار (٢) يصح ان يكون احد بلاد اوربا التي فيها طبقتا الفعلة والمزارعين هما اشد مقاومة لنشر الفوائد التي نجمت من اكتشاف ذلك الطبيب فكثير من

(١) الصبار هو التين الشوكي وايس بعربي والمانوليا نبات امريكي بهي الازهار

(٢) جنار طبيب انكليزي هو المخترع الملقب بالمادة الجذرية في أوربا حوالى سنة ١٧٧٦ م

الاسر (العائلات) يرفضون تقديم اولادهم للتلقيح إما بلا دة فهم او حذرا أو وسوسة بل ان منهم من يعتقدون ان في ابعاد المرض بأخذ الوسائل الواقية منه مهارضة لمشيئة الله تعالى ثم ان مصلحة الطبييات في هذا البلد وهن طائفة من القوابل يطبن في القرى من على شاكتهن تنحصر في تزويج مثل هذه الاوهام فان هؤلاء النساء لما كان معظمن بمجهل طريقة التلقيح كانت وظيفتهن القيام على من يصابون بالمرض وعلى بعد هذا يستغرب ازدياد عدد وفياته؟ لم يكتف الدكتور وانجوتون بتلقيح اميل بل اراد ان يحدد تلقيحي للتوقي من الخطر المحقق بنا

اني ولا أخفي عليك عند ما أفكر في الجدي أنس من نفسي رعباً واشمئزاً لا يحيط بها الوصف وخصيصاً اذا تمثل في خاطري انه لم يسلم من آثار هذا المرض الشنيع الا القليل من رجال القرن الماضي ونسائه . ولا شك ان الانسان يقضى يومه عناء وكدرأ اذا خطر في ذهنه ان كثيراً من اخدان الملوك كآلة نة فالير والسيدة دوبارتي وعنة غيرهما من ربات الحسن الاتي طار صيتهن بالجمال لتعاسة حظهن كن جيهةً بمجدوزات بدرجات متفاوتة في القلة والكثرة أما أنا فاني أشكر لعلم الطب نعمته على الانسان وهي تحرير وجهه واعفائه مما كان يؤديه من الجزية لذلك اللذاء المريع في اغلب اغاراته . فلقد كانت الفتاة منا معشر النساء ترى أمها في ان تحب قد انقطع بزوال ما كان ينمحي بسببه من محاسنها واني وان لم أكن الآن فتاة لكني لو جعلت لي الدنيا بما فيها على ان اخسر مالي من بقية الجمال القليلة مارضيتها منها بدلا فاني اخال اتى لو فقدت تلك البقية لانكرتني وانقطعت عنك معرفتي

انك بما كلفتي من مراقبة احوال الطفولية واستعراف شؤونها في شخص اميل كأنك قد بعثتي لاكتشاف بلد مجهول فانه من المحقق الذي لا ريب فيه وجود عالم للاطفال على حدته لان جميع من رأيتهم منهم لا يكادون يختلفون في شيء من طرق احساسهم وابداء انفعالهم ولكن من الصعب جدا الرجوع الى دخول هذا العالم بهذا الخروج منه فاذا رجعنا الى ما نذكره من ماضينا ابتغاء معرفة شيء من اموره تبينا ان اللجنة الارضية التي لم يخرجنا منها الا مجرد نمو ناو كبر ناوانه يكون من العبث البحث

عن موقعها في خريطة ذاكرتنا فليت شعري هل الطفل الساكن في تلك الجنة التي هي مطلع فجر حياته ودار هدمه وسكونه يعرف من امرها أكثر مما نعرف ؟ أنا ربما ملت الى اعتقاد هذا ولكن اذا كان الله سبحانه قد استودعه سرها فهذا السر هو في غاية الحفظ لم يطالع عليه أحد اذ كيف يصح تخمين ما يقع في نفس ذات صغيرة عاجزة عن بيان لذاتها وآلامها اللهم الا باهجة مبهمه واصوات غير معروفة الخارج . اني بما الاحظه في الاطفال كل يوم قد تبينت ان لهم لغة تكون قبل الكلام بكثير ولكن ما ايهما وأعسر فهمها حتى على الامهات انفسهن واني أخالي افهم بعض رغبات اميل وادرك انراحه واحزانه فهل هذا يكفي في معرفته ؟

منتهى ما يمكنني ان اقول فيما وصلت اليه من استعراف احواله هو اني لاحظت فيه حصول استحداثات كبرى فانه في مدة الشهرين الاولين من ولادته كانت معيشته كلها في نفسه (ان صح تسمية هذا معيشة) فلم يكن له ارتباط بالعالم الخارجي اما الآن فهو بمنزلة بعض ما يحيط به من الاشياء تميزاً فيه نوع من الوضوح وفوق ذلك فهو يتبسم لي

يومنا هذا هو عيد اول السنة الجديدة ولكن ما اشد حزني فيه واعظم كدري . وانت تعلم ان من عادة الناس في مثل هذا اليوم ان يتمنوا لمن يحبونهم من الخير ما يشاؤون وأنا أتمنى لك شيئاً واهدا هو ان تعود اليك نعمة الحرية . اه

حاشية - هديتي اليك في هذا العيد هي جزء من شعرا ميل ارساله طي هذه الرسالة

الاخبار التاريخية

(العام الجديد) هذا اليوم هو افتتاح سنة ١٣٦٨ الهجرة الشريفة وقد قابل سمو العزيز المعظم فيه جموع المهتمين من علماء العاصمة وأمرائها